ماستر 1 علم الاجتماع الحضري

دروس في مادة

"النظريات و المفاهيم الاساسية في علم الاجتماع الحضري"

توزيع المواد حسب تسلسل الحصص

رقم الحصة	الموضوع	نصوص تدعيمية	وثائق اخرى
1	مدرسة شيكاغو (1)	Robert Ezra Park, Ernest Burgess	
2	مدرسة شيكاغو (2)	Louis Wirth	
3	المادية التاريخية (الماركسية) و المدينة 1	Friedrich Engels Karl Marx	
4	المادية التاريخية (الماركسية) و المدينة 1	Henri Lefebvre Manuel Castells	
5	الحراك ألمجالي و الاجتماعي : نظريات و مفاهيم أساسية 1	John Urry	
6	الحراك ألمجالي و الاجتماعي : نظريات و مفاهيم أساسية	Vincent Kauffmann	
7	نظريات التمايز الاجتماعي و الحضري 1	Mike Davis	
8	نظريات التمايز الاجتماعي و الحضري 2	ONU Habitat	
9	خاتمة الدروس		
10			

الحصة الاولى :

مقاربة مدرسة شيكاغو

بعد ما تعرفنا على أعمال Maurice Halbwachs الذي لعب دورا أساسيا في نشر تحاليل رواد مدرسة شيكاغو في أوروبا بصفة عامة و بفرنسا خاصة، في الثلاثينات من القرن ال20, عرفت أطروحات Robert Ezra Park مؤسس المدرسة و زملائه رواجا كبيرا في الأوساط العلمية العالمية لاسباب عديدة,

- الأولى منها تكمن في إعادة الاعتبار لمستوى التحليل المحلي في الدراسات الحضرية بعد الحرب العالمية الثانية' مع تطوير البحوث الامبيريقية الميدانية,

- الثانية تكمن في اكتشاف الإبداعات المفاهمية لهذه المدرسة من طرف باحثي البلدان السائرة في طريق النمو اللذين شابهو واقع مدن الموجودة في الجنوب بنموذج تطوير مدينة شيكاغو،

- و الثالثة تكمن في توسيع اهتمام الباحثين بمظاهر الإقصاء الاجتماعي و التمايز الحضري في مدن العالم الثالث، تلك المظاهر التي كانت شكلت محاور اهتمام رواد هذه المدرسة.

لان مدينة شيكاغو، غي الكثير من مميزاتها البشرية و الاجتماعية عرفت في مراحل تطورها مظاهر تشبه الى حد بعيد مراحل الانفجار الديموغرافي و اليات التوسع السريع و العشوائي القي ميزت مدن الجنوب العملاقة.

من مدينة صغيرة تقطن فيها 5000 نسمة في سنة 1840، عرفت شيكاغو انفجارا سكانيا سريعا بحيث سجل فيها اكثر من 1.000.000 ساكن في سنة 1890, و لقد أخذت الهجرة القادمة من مختلف أقطار العالم القسط الكبير من تعميرها البشري، فيما يخص خاصة ظاهرة تكديس السكان غي أحياء عرقية تشبه إلى حد بعيد الغيتوهات (les ghettos) اليهودية المتواجدة في بلدان أوروبا الشرقية.

من جهة أخرى، فان مشهد الفوضى الحضرية الذي كان يبدو سائدا في هذه المدينة شكل مصدر اهتمام ثاني للباحثين، لما يحتوي في باطنه نظاما خفيا راح باحثي مدرسة شيكاغو يحالون الكشف و التعرف عنه من خلال توظيف مناهج بحث جديدة أعطت القسط الكبير للتقنيات الكيفية من جهة و لمعالجة المعطيات الإحصائية من جهة أخرى. فلقد ارتكز باحثي مدرسة شيكاغو في هذا الشأن على استمال الملاحظة الانتروبولجية المباشرة، على المقابلة و على تحليل قصص حياة السكان و على الشهادات الشفوية.

تأثير أعمال Georg Simmel على مدرسة شيكاغو

يمكن القول أن للعالم الاجتماعي Georg Simmel تأثيرا قويا على هذه المدرسة خاصة إذا عرفنا أن مؤسسها Robert Ezra Park كان تلميذا له في جامعة هيدلبرق و لآن نظريات و تحاليل هذا الأخير حول مظاهر الحياة الجماعية في الحواضر الكبرى (métropoles) شكلت القاعدة المرجعية لمقاربة Robert Ezra Park للعلاقة بين الفرد الحضري الحديث النشأة مع جماعات انتمائه العرقية و المهنية.

أن مقاربة زيمل (Simmel) للإنسان الحضري بينت بصفة عامة و واضحة الآثار المتناقضة للمدينة على سلوكيات و شخصيات سكان المدن. فالمدينة تولد في آن واحد ، في إطار توسيع الحياة الشخصية، حريات فردية و الخضوع لعوائق جديدة. فان الانسان الحضري الجديد يتميز بالحرية لأنه في محل تقاطع بين الشبكات الاجتماعية العديدة التي ينتمي إليها و الذي يتمكن له التخلص منها و من رقابة الآخرين من جهة و عرضة للاغتراب (aliénation) بمعنى انه لا يمكن لع السيطرة على عالم حضري ينمو و يتطور بسرعة فائقة والذي لا يحتاج اليه. بهذا الاقتراب، وضح لنا زيمل الطابع المزدوج للحياة في المدن الذي يتأرجح بين ما هو المشخص والغير المشخص و الذي يتجلى في في مفهوم "الغريب" . هذا الأخير هو قبل كل شيء إنسان يحاول استيراد مميزاته الخاصة، الذاتية في عالم حضري جديد يتسم بالغرابة.

انطلاقا من هذه التحاليل، سلط علماء مدرسة شيكاغو و خاصة منهم (Robert Ezra Park) الضوء على ظاهرة التهميش (marginalité) التي تميز وضعية المهاجرين الجدد من الجيل الثاني في المدن الأمريكية الذين يعيشون وضعية انتماء مزدوج. فهم في نفس الوقت أجانب، غرباء و سكان محليين في وضعية هشة، غير مستقرة. حلل لنا بارك في مؤلفاته المختلفة وجه الهوبو (hobo)، تلك الإنسان الغير مستقر، الدائم التحرك في الفضاء الحضري الذي ليس له أي انغراس محلي.

من هذا المنطلق، راح باحثين مدرسة شيكاغو يطورون فكرة أن المجال الحضري يخلق شخصية ثقافية جديدة تتميز بالتعتيم (عدم الشفافية) ، الانشطار (segmentation) في الهوية و قابلية الأفراد على لعب أدوار مختلفة تمزج بين الاقتراب الابتعاد في نسج العلاقات مع الغير. فان تعدد الأدوار، إخفاء الهوية، الطابع السطحي للعلاقات بين الناس يشكلون السمات الأساسية للإنسان الحضري الجديد.

الحصة الثانية :

المدينة كوضع ايكولوجي

تميزت أعمال أعضاء مدرسة شيكاغو باعتمادها على نموذج تفسيري لمعاملات الأفراد و الجماعات في الوسط الحضري مقتبسا من النظريات الايكولوجية التي تطورت في العلوم الطبيعية مفاهيم و لأدوات نظرية أساسية. انطلاقا من النظرية الداروينية (بالنسبة إلى العالم الانجليزي Darwin) التي تبين ترابط الكائنات الحية مع بعضها البعض في إطار الأنساق الايكولوجية الطبيعية (Les écosystèmes)، اعتبر Robert Ezra Park أن الوسط الحضري بمثابة وسط طبيعي مقسم الى مجموعة من المساحات الطبيعية aires) (naturelles تحاول الاستيطان و السيطرة عليها جماعات متجانسة من حيث مميزاتها العرقية أو الثقافية. فان الأحياء المختلفة المكونة لمدينة شيكاغو، تلك المخبر الاجتماعي الذي كان مجالا للتحليل هي مساحات طبيعية تتصارع فيها الجماعات و الأفراد من أجل السيطرة عليها. فهي مجالات لعمليات غزو، سيطرة أو تكامل و ذوا بان بحيث اصبحت المدينة عبارة عن فسيفساء من الاحياء المتباينة من حيث مميزاتها لعرقية و الثقافية، تسكن فيها جماعات متجانسة اجتماعيا و ثقافيا : أحياء السود، الاطاليين، اليهود، الصينيين، الخ...

اهتم الباحث Louis Wirth بهذه الظاهرة في كتابه The Ghetto الذي سلط فيه الضوء على المظاهر و الخصوصيات المعيشية لسكان الحي اليهودي لمدينة شيكاغو الذي حسب رأيه يشبه الاحياع اليهودية التي كانت متواجدة في أوروبا الشرقية في القرون الوسطي من حيث انغلاقها على الغير و عزلتها و من حيث نفورها من طرف السلطات المحلية.إلا أن الحي اليهودي لمدينة شيكاغو يلعب في نطاق الوضعية التاريخية لشيكاغو دور "منطقة الانتقال" (zone de transition) من المركز الحضري الى الضاحية، مثله مثل الأحياء العرقية الأخرى التي هي عبارة عن محطة من المحطات في المسيرات الارتقائية للمهاجرين الجدد. بين Louis Wirth بوضوح في هذا الكتاب الطابع المزدوج لهويات الافراد القاطنين في هذه الاحياء: فانهم يتمتعون في نفس الوقت بالحماية الاجتماعية و المعنوية التي تقدمها الجماعة العرقية و من فرص الاندماج الاقتصادي و الاجتماعي في المجتمع العام التي توفرها المدينة بمفهومها الواسع.

من هذا المنظور الديناميكي لعمليات الاندماج الحضري، ساهم الباحث Ernest Burgess في إثراء هذا التفسير باقتراحه لنموذج "النافورة" (la fontaine) الذي يصف طرق انتقال المهاجرين من الاحياء المركزية الفقيرة و المتدهورة ذات الطابع العرقي نجو الأحياء المتواجدة في الضواحي ذات الطابع ألاختلاطي بعد ما تتحسن وضعياتهم المهنية و الاجتماعية باكتسابهم موارد مالية إضافية تسمح لهم الولوج إلى مساكن لائقة.

يتبين من خلال الرسم البياني 2، و الذي رسمه Ernest Burgess انطلاق من الخارطة رقم 1 التي تطرح توزيع سكان مدينة شيكاغو حسب انتماءاتهم العرقية وجود هيكلة حضرية "ايكولوجية" لمدينة ترتكز على مجموعة من الحلقات (cercles concentriques) المتداخلة. تأوي الحلقة الاولى المركزية ال Central Business District الذي تتجمع فيه الالمرافق المركزية الاساسية من مراكز تجارية كبيرة، مكاتب مقرات المؤسسات الاقتصادية، البنوك، وسائل النقل الجماعية و البنايات ذات الطابع الاجتماعي و الثقافي. نجد حول هذا الحلقة المركزية "منطقة الانتقال" (zone de transition) المكونة من مساكن قديمة متدهورة يقطن فيها المهاجرين من الجيل الأول ضمن الأحياء العرقية و اللذين استوطنوا بالمدينة مؤخرا. الحلقة الثالثة تأوي العائلات العمالية التي تريد الخروج من الحلقة الثانية و التي تسعى على الحفاظ على اقترابها من أماكن عملها و هي متكونة من المهاجرين من الجيل الثاني. أما الحلقة الرابعة، فهي "منطقة الاختلاط" التي تأوي العائلات الامريكية الاصلية التي تشكت الطبقات الوسطى لمجتمع الحضري.

هذا النموذج الحلقي يعبر بصفة واضحة عن الارتقاء الاجتماعي بارتباطها بآليات بالحراك المجالي. يقول لنا Burgess في هذا الصدد أن "الارتقاء الحضري، أي تغيير مكان السكن و جودة المسكن مرهونان بالارتقاء الاجتماعي",و "إن الحراك المجالي نتيجة حتمية للحراك الاجتماعي". يشير لنا أيضا هذا الباحث أنه يمكن لنموذج النافورة أن يتغير و أن يأخذ أشكال أكثر تعقيدا و لكنه يحافظ على بعده التفسيري لما يربط بين آليات تغيير الإقامة (الحراك المجالي) بآليات الارتقاء الاجتماعي (الحراك الاجتماعي) مسلطا الضوء على إمكانية الأفراد في المدن الحديثة نسج مسيرات ارتقائية فردية متنوعة، بعيدة عن اكراهات و ضغوطات الجماعات العرقية.

المدينة كوضع طبيعي:

تجدر الاشارة الى الانتقادات العديدة التي واجتها مدرسة شيكاغو فيما يخص اعتقادها أن المدينة تتطور بصفة "طبيعية" أي أنه لا مجال لتدخل السلطات لسياسية على المستوين المحلي و المركزي في شأنها المادي و الاجتماعي. يقول Stébé و Marchal في كتابهم Sociologie urbaine أن النموذج التفسيري الايكولوجي الذي يعطي صبغة طبيعية لكل الظواهر الحضرية ساهم في تجاهل الدور الأساسي الذي لعبته بعض القوى السياسية المحلية المهيمنة في أخذ قرارات كانت لها أهمية بالغة في تطوير المدينة و تعميرها. لآ وجود حسب هاذين المؤلفين لتحاليل تأخذ بعين الاعتبار الأبعاد السياسية للنمو الحضري و خاصة للتقسيمات و الفوارق الاجتماعية الناجمة من إقصاء فئات واسعة من المجتمع الحضري لشيكاغو. هذا ما ساهم في فتح الباب على مصراعيه أمام الانتقادات الآتية من الباحثين الماركسيين.

وثائق و نصوص تدعيميه :

خريطة 1 : توزيع سكان مدينة شيكاغو في الفضاء الحضري حسب الانتماءات العرقية

Traité sur la ville

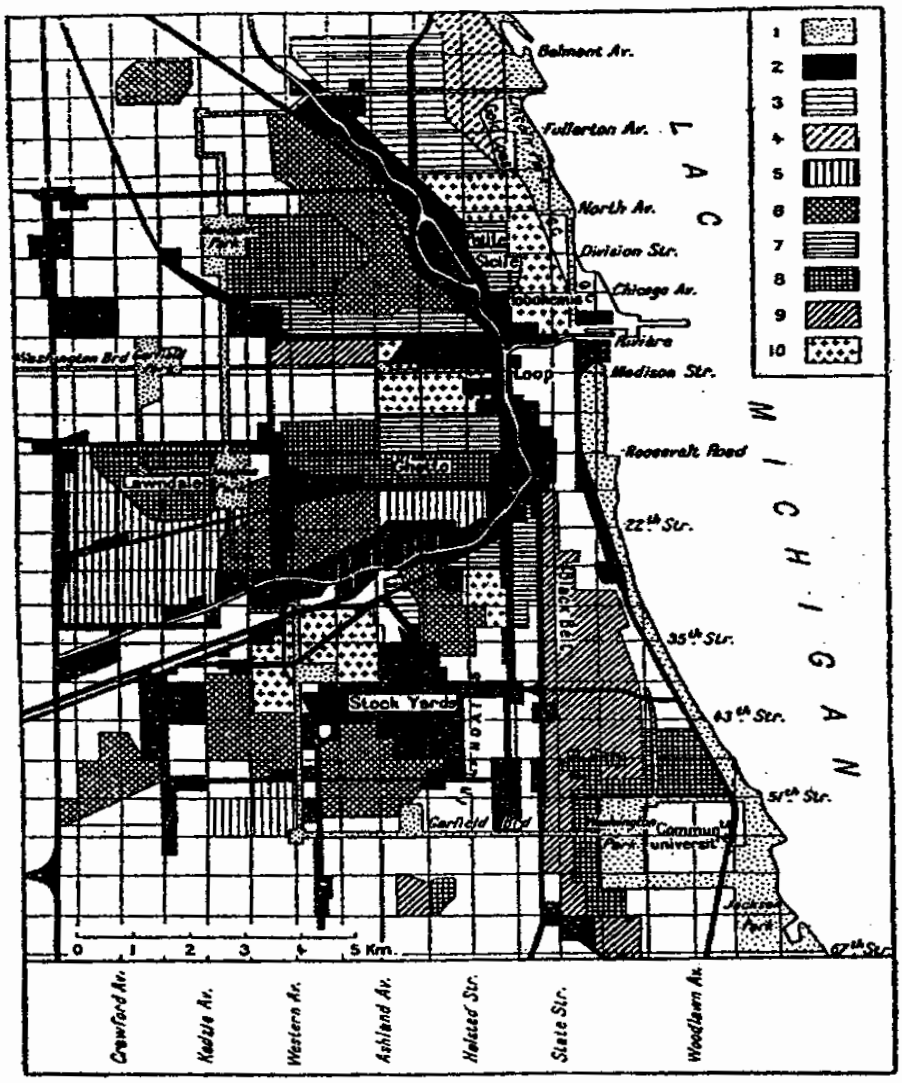

Fig. 2. — *Carte ethnique de Chicago* (Halbwachs, 1932)

1. Parcs, boulevards ; 2. Terrains industriels et chemins de fer ; 3. Allemands ; 4. Suédois ; 5. Tchécoslovaques ; 6. Polono-Lithuaniens ; 7. Italiens ; 8. Juifs ; 9. Nègres ; 10. Population mêlée. Abréviation : G. C. = Gold Coast.

310

خريطة 1 : نموذج النافورة و حلقات التعمير ل Ernest Burgess

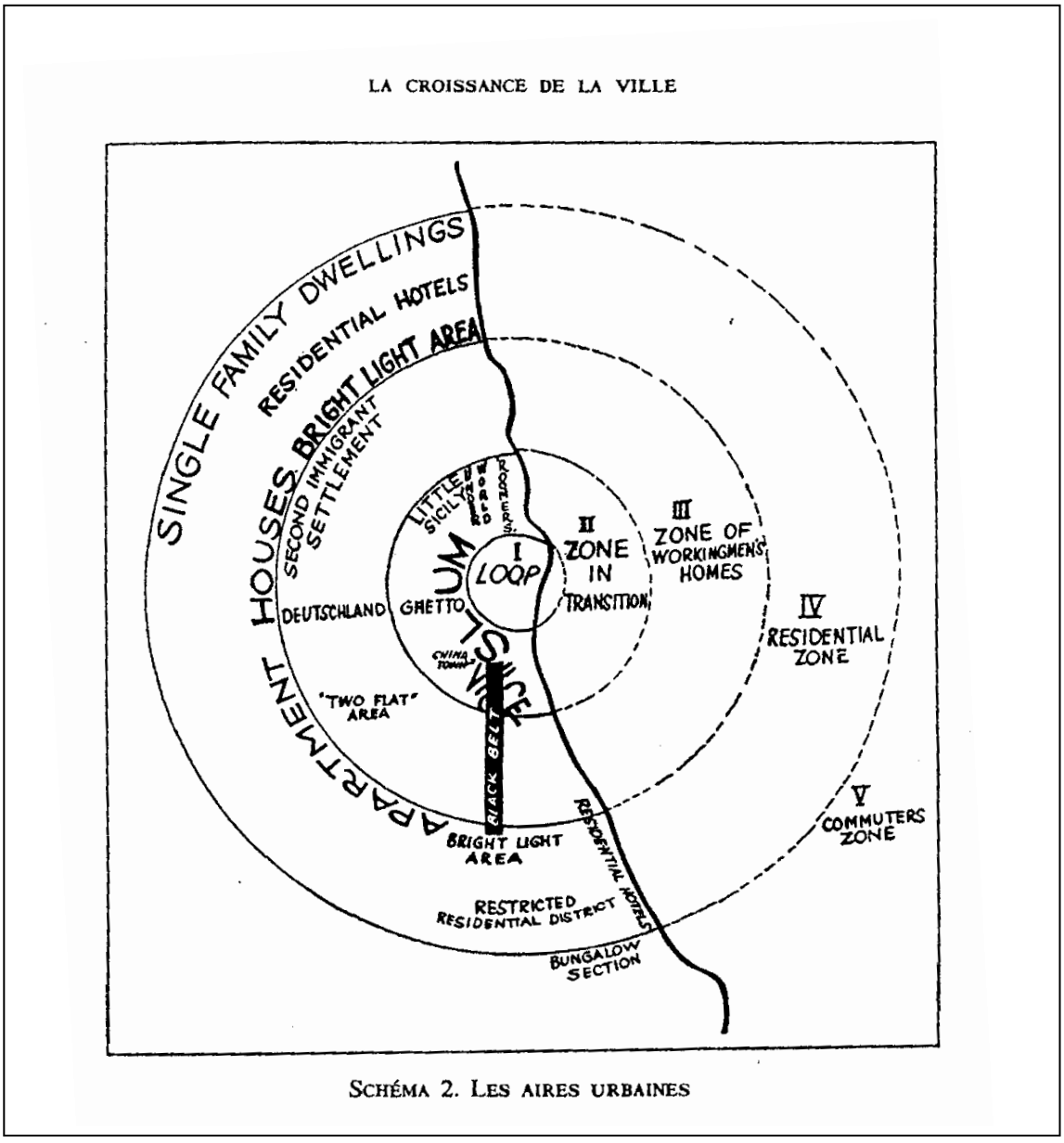

SCHÉMA 2. LES AIRES URBAINES

خرائط 3 و 4 : التوزيع العرقي لسكان الجزائر في سنة 1954

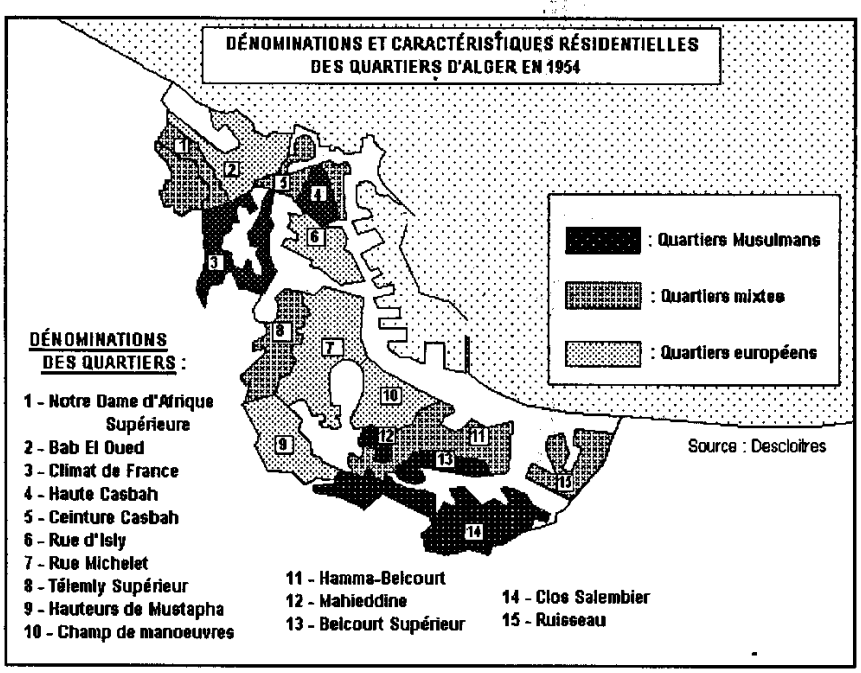

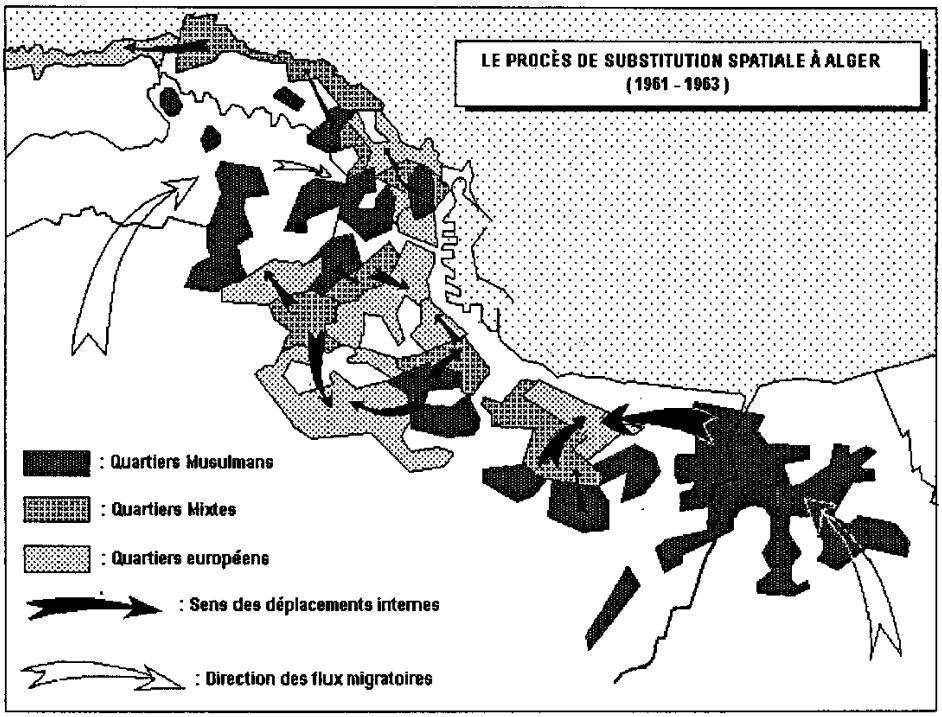

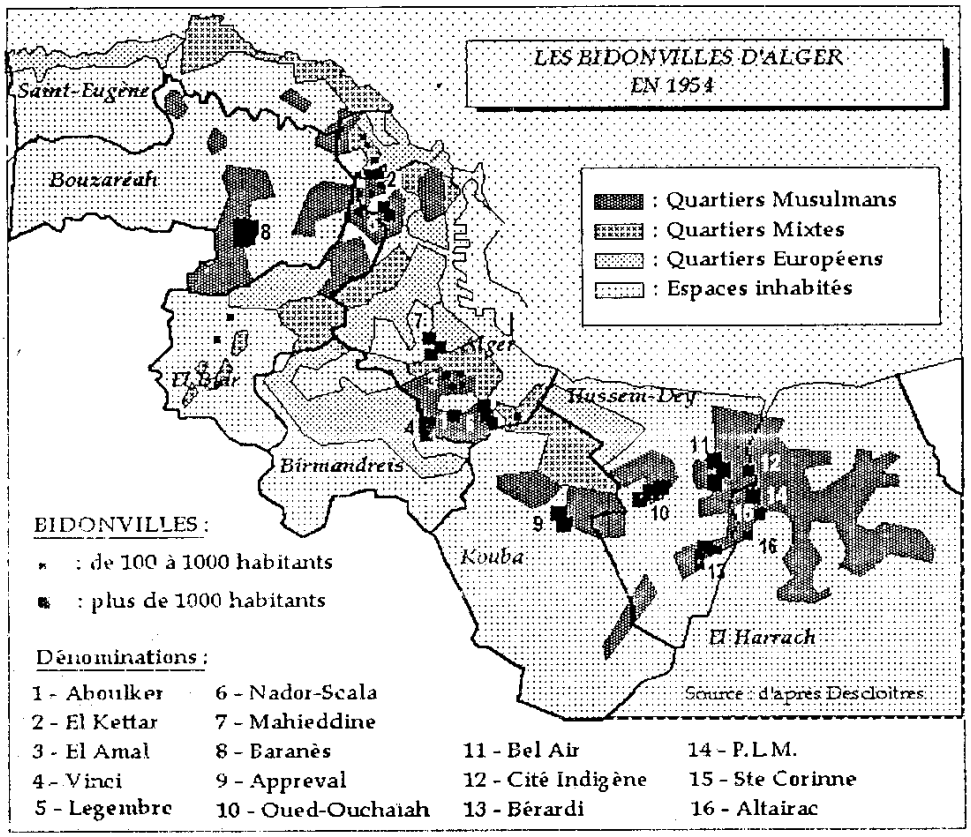
LES BIDONVILLES D'ALGER
EN 1954
Saint-Eugène
Bouzaréah
El Biar
Alger
Hussein-Dey
Birmandreis
Kouba
El Harrach
: Quartiers Musulmans
: Quartiers Mixtes
: Quartiers Européens
: Espaces inhabités
BIDONVILLES :
: de 100 à 1000 habitants
: plus de 1000 habitants
Dénominations :
1 - Aboulker
2 - El Kettar
3 - El Amal
4 - Vinci
5 - Legembre
6 - Nador-Scala
7 - Mahieddine
8 - Baranès
9 - Appreval
10 - Oued-Ouchaiah
11 - Bel Air
12 - Cité Indigène
13 - Bérardi
14 - P.L.M.
15 - Ste Corinne
16 - Altairac
Source : d'après Descloitres

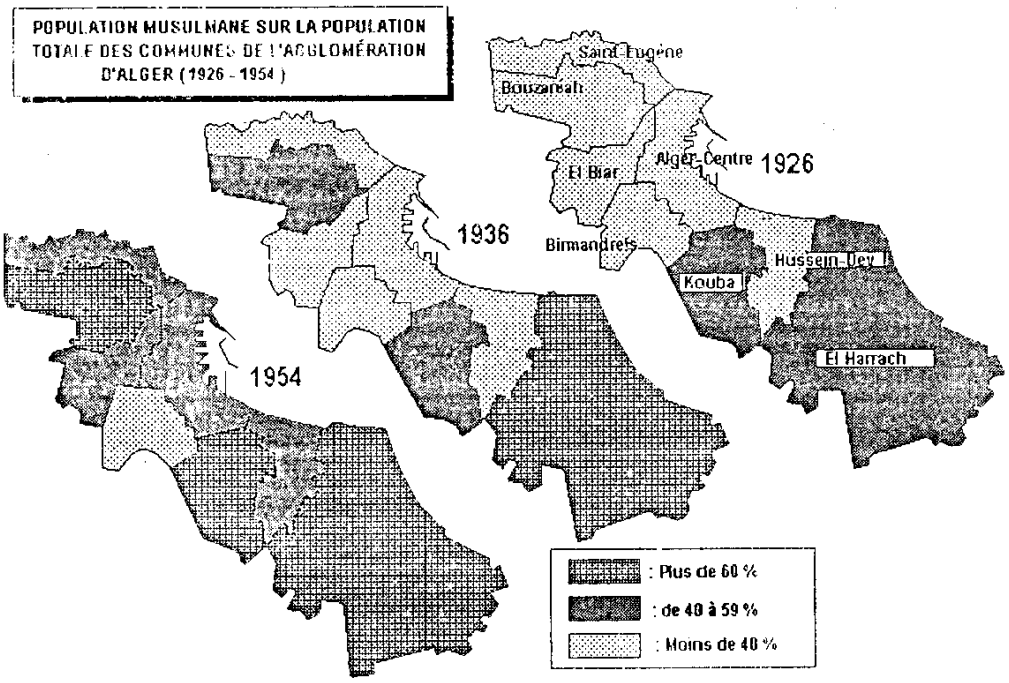
POPULATION MUSULMANE SUR LA POPULATION TOTALE DES COMMUNES DE L'AGGLOMÉRATION D'ALGER (1926 - 1954)
Saint-Eugène
Bouzaréah
El Biar
Alger-Centre
1926
1936
Birmandreis
Kouba
Hussein-Dey
El Harrach
1954
: Plus de 60 %
: de 40 à 59 %
: Moins de 40 %

المقال التأسيسي ت Robert Ezra Park "المدينة : اقتراحات بحث حوت السلوكيات الاجتماعية في الوسط الحضري" (1926)

La ville

Propositions de recherche sur le comportement humain en milieu urbain

Robert Ezra Park

La ville, dans l'optique de cet article, est quelque chose de plus qu'une agglomération d'individus et d'équipements collectifs : rues, immeubles, éclairage électrique, tramways, téléphones, etc. ; c'est également quelque chose de plus qu'une simple constellation d'institutions et d'appareils administratifs : tribunaux, hôpitaux, écoles, postes de police et corps de fonctionnaires de toutes sortes. La ville est plutôt un état d'esprit, un ensemble de coutumes et de traditions, d'attitudes et de sentiments organisés, inhérents à ces coutumes et transmis avec ces traditions. Autrement dit, la ville n'est pas simplement un mécanisme matériel et une construction artificielle. Elle est impliquée dans les processus vitaux des gens qui la composent : c'est un produit de la nature et, particulièrement, de la nature humaine.

Comme Oswald Spengler l'a montré récemment, la ville a sa propre culture : « La ville est à l'homme civilisé ce que la maison est au paysan. Comme la maison a ses divinités du foyer, la ville a sa divinité protectrice, son saint local. Elle aussi a ses racines, comme la cabane du paysan [1]. »

1. Oswald SPENGLER, *Der Untergang des Abenlandes*, IV, München, 1922, p. 105.

La ville a été étudiée récemment du point de vue de sa géographie et, plus récemment encore, du point de vue de son écologie. A l'intérieur des limites d'une communauté urbaine — et, en fait, de n'importe quelle aire naturelle d'habitat humain —, des forces sont à l'œuvre qui tendent à produire un groupement ordonné et caractéristique de sa population et de ses institutions. La science qui cherche à isoler ces facteurs et à décrire les constellations typiques de personnes et d'institutions produites par leur convergence, nous l'appelons écologie humaine, par opposition à l'écologie végétale ou animale.

Les transports et les communications, les tramways et le téléphone, les journaux et la publicité, les édifices en acier et les ascenseurs — toutes choses, en fait, qui tendent à accentuer en même temps la concentration et la mobilité des populations urbaines — sont les facteurs principaux de l'organisation écologique de la ville.

Pourtant, la ville n'est pas seulement une unité géographique et écologique : c'est en même temps une unité économique. L'organisation économique de la ville est fondée sur la division du travail. La multiplication des emplois et des professions au sein de la population urbaine est un des aspects les plus frappants et les moins bien compris de la vie urbaine moderne. En ce sens, rien ne nous interdirait de nous figurer la ville, c'est-à-dire les lieux, les hommes et tous les rouages et équipements administratifs qui leur sont liés, comme un tout organique ; une sorte de système psycho-physique dans lequel, au travers duquel, les intérêts privés et politiques trouvent une expression non seulement collective, mais organisée.

Une grande partie des éléments que nous considérons d'ordinaire comme constitutifs de la ville — ses statuts, ses organisations formelles, ses immeubles, ses chemins de fer urbains, etc. — sont ou semblent être de simples artefacts. Mais tous ces éléments ne sont par eux-mêmes que des services, des équipements accessoires et ne deviennent partie prenante de la ville vivante que si et dans la mesure où ils sont eux-mêmes connectés, par l'usage et la volonté, aux forces vives des individus et des communautés, exactement comme un outil à la main de l'homme.

En somme, la ville est l'habitat naturel de l'homme civilisé

et, par là même, c'est une aire culturelle caractérisée par son type culturel particulier.

« C'est un fait certain, quoique jamais entièrement admis, dit Spengler, que toutes les grandes cultures sont citadines. L'homme par excellence de la deuxième génération est un animal bâtisseur de villes. Tel est le véritable trait distinctif de l'histoire mondiale par opposition à l'histoire de l'humanité : l'histoire mondiale est l'histoire des citadins. Nations, gouvernements, politiques et religions reposent sur ce phénomène fondamental de l'existence humaine : la ville[2]. »

Jusqu'ici, l'anthropologie, la science de l'homme, s'est consacrée principalement à l'étude des peuples primitifs. Mais l'homme civilisé est un objet de recherche tout aussi intéressant, sans compter qu'il est plus facile à observer et à étudier. La vie et la culture urbaines sont plus variées, subtiles, complexes, mais les ressorts fondamentaux sont les mêmes dans les deux cas. Les mêmes méthodes d'observation patiente que des anthropologues comme Boas et Lowie ont mis en œuvre pour étudier la vie et les manières d'être des Indiens d'Amérique du Nord peuvent s'appliquer de façon encore plus fructueuse à l'étude des coutumes, des croyances, des pratiques sociales et des conceptions générales de la vie qui règnent dans le quartier de Little Italy ou dans le bas quartier du North Side à Chicago, ou encore pour relater les mœurs plus sophistiquées des habitants de Greenwich Village ou du quartier de Washington Square à New York.

Si notre connaissance de la vie urbaine contemporaine s'est précisée, c'est surtout aux romanciers que nous le devons. Mais la vie de nos villes réclame une analyse encore plus fouillée et désintéressée que celle qu'Emile Zola nous a laissée dans ses romans « expérimentaux » ou dans les annales de la famille Rougon-Macquart. Nous avons besoin de ce genre d'études, ne serait-ce que pour pouvoir lire les journaux de manière intelligente. Si le lecteur moyen d'un journal trouve ses chroniques quotidiennes si choquantes et, en même temps, si fascinantes, c'est qu'il ne sait quasiment rien de la vie dont ce journal se fait l'écho.

2. Oswald SPENGLER, *op. cit.*, t. IV, p. 106.

Les observations qui suivent ont pour but de définir un point de vue et d'indiquer un programme d'étude de la vie urbaine : son organisation matérielle, ses emplois, sa culture.

I. *Le plan de la ville et l'organisation locale*

Ce qui frappe au premier abord dans la ville, particulièrement dans la ville américaine, c'est qu'elle semble être si peu le fait de processus naturels, dans sa naissance et sa croissance, qu'il est difficile de voir en elle une entité vivante. Le plan au sol de la plupart des villes américaines est un damier ; l'unité de distance est le *block*. Cette apparence géométrique laisse penser que la ville est une construction purement artificielle dont on peut imaginer le démantèlement, puis la recomposition, comme un jeu de cubes.

Le fait est, cependant, que la ville s'enracine dans les habitudes et les coutumes des gens qui y habitent. Il en résulte qu'elle est dotée d'une organisation morale et d'une organisation matérielle et que leurs interactions, dont les modalités sont caractéristiques, font qu'elles s'adaptent l'une à l'autre et qu'elles se modifient l'une l'autre. C'est d'abord la structure de la ville qui saute aux yeux par son immensité et sa complexité ; mais cette structure a son fondement dans la nature humaine dont elle est l'expression. Par ailleurs, cette organisation immense, née des besoins des habitants, s'impose à eux une fois qu'elle est constituée comme une donnée brute et extérieure qui les modèle à son tour d'après le dessein et les intérêts qui lui sont propres. La structure et la tradition ne sont que des aspects différents d'un seul complexe culturel qui détermine la spécificité et la particularité de la ville, par opposition au village, de la vie urbaine par opposition à la vie à la campagne.

LE PLAN DE LA VILLE. C'est dans la mesure où la ville a sa vie propre qu'il y a des limites aux modifications arbitraires qu'il est possible d'imposer : 1) à sa structure matérielle et : 2) à son ordre moral.

Le plan de la ville, par exemple, établit des limites et des bornes, fixe de manière générale la localisation et le caractère des constructions urbaines et impose, à l'intérieur de l'aire urbaine, un agencement ordonné aux immeubles érigés par l'initiative privée comme par les services administratifs. Cependant, dans les limites prescrites, le cours inéluctable de la nature humaine continue de donner à ces secteurs et à ces édifices un caractère moins facilement contrôlable. Par exemple, dans notre système de propriété individuelle, il est impossible de déterminer par avance le degré de concentration de population auquel on peut s'attendre pour une aire donnée. La ville ne peut pas fixer les valeurs foncières et nous laissons en grande partie à l'entreprise privée le soin de déterminer les limites urbaines et la localisation de ses quartiers résidentiels et industriels. Les convenances et les goûts personnels, les intérêts professionnels et économiques tendent infailliblement à la ségrégation, donc à la répartition des populations dans les grandes villes. De sorte que les populations urbaines s'organisent et se distribuent suivant un processus qui n'est ni voulu ni maîtrisé.

La compagnie des téléphones Bell procède à l'heure actuelle à des recherches minutieuses, sur New York et Chicago en particulier, visant à déterminer la croissance probable et la distribution de la population urbaine à l'intérieur des aires métropolitaines, avant même que ne surviennent les changements effectifs. La Fondation Sage, au cours de ses études de planification urbaine, a cherché à définir les formules mathématiques qui lui permettraient de prévoir l'expansion et les limites futures de la population new-yorkaise. Le développement récent des magasins à succursales multiples a fait du problème de localisation un sujet de préoccupation pour différentes sociétés à succursales. Cela a eu pour effet de donner naissance à une nouvelle profession.

Il existe maintenant une catégorie d'experts dont le seul métier consiste à découvrir et à localiser, avec une précision quasi scientifique et en tenant compte des changements que les tendances actuelles semblent devoir provoquer, des restaurants, des bureaux de tabac, des drugstores et autres commerces de détail plus petits dont la réussite dépend largement de la localisation. Les propriétaires immobiliers financent souvent

volontiers ce genre de commerce local dans des endroits où ils estiment qu'ils seront bénéficiaires, eux-mêmes bénéficiant ainsi d'une part du profit par leurs loyers.

La géographie physique, les avantages et les inconvénients naturels, y compris les moyens de transport, déterminent par avance les grandes lignes du plan urbain. Au fur et à mesure que la population urbaine s'accroît, les influences subtiles de la sympathie, de la rivalité et de la nécessité économique tendent à contrôler la répartition de la population. Le monde des affaires et celui de l'industrie cherchent des emplacements avantageux et attirent autour d'eux certaines catégories de population. Des quartiers résidentiels élégants voient le jour, et l'augmentation de la valeur foncière dans ces quartiers en exclut les classes pauvres. C'est alors qu'apparaissent des quartiers de taudis habités par une multitude de pauvres incapables de se prémunir face à l'association du vice et de la déréliction.

Au fil des années, chaque secteur, chaque quartier de la ville acquiert quelque chose du caractère et des qualités de ses habitants. Chaque partie de la ville prend inévitablement la couleur que lui impriment les sentiments particuliers de sa population, de sorte que ce qui n'était qu'une simple expression géographique se transforme en un voisinage, c'est-à-dire une localité avec sa sensibilité, ses traditions, son histoire propres. A l'intérieur de ce voisinage, la continuité des processus historiques se maintient dans une certaine mesure. Le passé s'impose au présent, et la vie de chaque localité suit son cours sur un rythme qui lui est propre et qui est plus ou moins indépendant de ce qui peut se dérouler et avoir de l'importance en dehors d'elle.

L'organisation de la ville, le caractère de l'environnement urbain et des disciplines qu'il impose sont déterminés enfin par la taille de la population, sa concentration et sa distribution à l'intérieur de l'aire urbaine. C'est pourquoi il est important d'étudier la croissance urbaine, de comparer les idiosyncrasies dans la distribution de la population urbaine. Les questions qu'il nous faut donc poser tout d'abord à propos de la ville sont les suivantes :

- Quelles sont les sources de la population urbaine ?
- Quelle est la part de croissance démographique normale, c'est-à-dire due à l'excédent des naissances sur les décès ?
- Quelle est la part de cette croissance due à l'immigration nationale et à l'immigration étrangère ?
- Quelles sont les aires « naturelles » remarquables dans la ville, c'est-à-dire quelles sont les aires de ségrégation ?
- Comment la distribution de la population urbaine est-elle affectée : a) par les intérêts économiques, c'est-à-dire les valeurs foncières et : b) par l'attachement affectif, par la race, par les intérêts professionnels ? Etc.
- Quels sont les secteurs où la population décroît ? Quels sont ceux où elle s'accroît ?
- Parmi les différentes aires urbaines naturelles, quelles sont celles où la croissance démographique et la taille des familles sont corrélées avec les naissances et les décès, les mariages et les divorces, les loyers et les niveaux de vie ?

LE VOISINAGE. La proximité et les contacts de voisinage sont la base des formes les plus simples et les plus élémentaires d'association auxquelles nous avons affaire dans l'organisation de la vie urbaine. Les intérêts locaux et les associations entretiennent un attachement local, de sorte que, dans un système qui fait de la résidence la base de la participation aux affaires publiques, le voisinage devient la base du contrôle politique. Dans l'organisation sociale et politique de la ville, c'est l'unité locale la plus petite.

C'est sans doute l'un des phénomènes sociaux les plus remarquables, qui nous vient de la nuit des temps et qui doit nous faire admettre instinctivement que l'homme qui construit sa maison à côté de la nôtre commence à solliciter notre sens de la camaraderie. [...] Le voisinage est une unité sociale dont nous pouvons dire à juste titre qu'elle fonctionne comme un état d'esprit collectif, tant est claire la définition de son contour et sont fortes sa cohérence intrinsèque et ses réactions à fleur de peau. [...] Le responsable local, tout autocratique qu'il puisse être dans la sphère élargie de la ville grâce au pouvoir qu'il acquiert dans son quartier, se doit d'être " du coin " et avec " les gens du coin " ; et il est très attentif à ne pas les décevoir, pour

autant que leurs intérêts locaux sont en jeu. Il est très difficile de berner un voisinage sur ses propres affaires [3].

Le voisinage existe sans organisation formelle. La société d'action locale est une structure érigée sur la base de l'organisation spontanée des voisinages et qui se constitue pour donner la parole au sentiment local sur ce qui touche aux intérêts locaux.

Sous les influences complexes de la vie urbaine, ce que nous pourrions appeler le sentiment normal d'appartenance au voisinage a subi des modifications curieuses et intéressantes et a produit de nombreux types inhabituels de communautés locales. De plus, il y a des quartiers en formation et des quartiers en dissolution. Prenez, par exemple, la 5e avenue à New York, qui n'a probablement jamais eu d'association d'action locale, et comparez-la avec la 135e rue, dans le Bronx — sans doute la plus grande concentration de population noire du monde entier —, qui est en train de devenir une communauté étroite et hautement organisée.

> Dans l'histoire de New York, le même mot, Harlem, a désigné une réalité d'abord hollandaise, puis irlandaise, juive et noire. De tous ces changements, le dernier a été le plus rapide. A travers l'Amérique, du Massachusetts au Mississipi, et, de l'autre côté du continent, jusqu'à Los Angeles et Seattle, ce nom de Harlem qui, quinze années auparavant, aurait à peine été entendu, s'est mis à désigner la métropole noire. En vérité, Harlem est la Mecque du touriste, du jouisseur, du curieux, de l'aventurier, de tous les individus entreprenants, ambitieux, de talent du monde noir ; son attraction a réussi à s'exercer jusque dans chaque île de la mer des Caraïbes et même jusqu'en Afrique [4].

Il importe de connaître les forces qui tendent à faire éclater les tensions, les intérêts et les sentiments qui donnent aux

3. Robert A. Woods, « The Neighborhood in Social Reconstruction », *Papers and Proceedings of the Eighth Annual Meeting of the American Sociological Society*, 1913.
4. James Weldon Johnson, « The Making of Harlem », *Survey Graphic*, March 1, 1925.

quartiers leur caractère particulier. De manière générale, il s'agit de tout ce qui peut tendre à provoquer l'instabilité de la population, à diviser et concentrer les attentions sur des centres d'intérêt complètement divergents.

- Quelle proportion de la population est flottante ?
- Quelle est la composition de cette population : races, classes, etc. ?
- Quel est le nombre de gens vivant à l'hôtel, dans des appartements, dans des garnis ?
- Quel est le nombre de gens propriétaires de leur logement ?
- Quelle est la proportion de la population faite de nomades, de *hobos* [5], de gitans ?

Par contre, certains quartiers urbains souffrent d'isolement. A plusieurs reprises, des efforts ont été faits pour reconstruire ou ranimer les quartiers des grandes villes et les mettre au contact de la réalité plus globale de la communauté. Telle est, pour partie, la fonction des œuvres sociales : ces organisations, comme d'autres qui ont cherché à restaurer la vie urbaine, ont exploité des méthodes et une technique de stimulation et de contrôle des communautés locales. Nous devrions mener, parallèlement à l'étude de ces organismes, l'étude de ces méthodes et de cette technique, puisque c'est bien la méthode par laquelle les objets sont contrôlés en pratique qui révèle leur nature essentielle, c'est-à-dire leur caractère prévisible [*Gesetzmässigkeit*] [6].

Beaucoup de villes européennes et un certain nombre de villes américaines en sont venues, dans le processus de restauration de la vie urbaine, à aménager des banlieues-jardins ou à rem-

5. Ce terme désigne aussi bien le travailleur migrant que le clochard. (N d T.)
6. « C'est pourquoi si, en philosophie des sciences, nous voulons utiliser le mot de [Nature] comme un terme logique, nous devrons dire que la nature est la réalité en tant qu'elle est ordonnée de manière prévisible. Nous trouvons cette signification par exemple dans l'expression " loi de la nature ". Mais en outre, nous pouvons ainsi nommer ce qui entre dans le concept de nature en général ou, pour nous exprimer très brièvement : la nature est la réalité en tant qu'ensemble des choses. » (H. Rickert. *Die Grenzen der naturwissenschaftlichen Begriffsbildung*, p. 212.)

placer des garnis insalubres et délabrés par des logements modèles, propriété de la municipalité ou sous son contrôle.

Dans les villes américaines, on a tenté de rénover les quartiers mal famés en aménageant des terrains de jeu et en introduisant toutes sortes d'activités sportives dirigées, et même des bals municipaux dans des salles de bal municipales. Ces dispositifs et d'autres encore, destinés primitivement à élever la tenue morale des populations des grandes villes victimes de la ségrégation, devraient être étudiés et mis en rapport avec les recherches sur le quartier en général. Bref, ils devraient être étudiés non seulement pour eux-mêmes, mais aussi pour ce qu'ils peuvent nous révéler du comportement humain et de la nature humaine en général.

LES COLONIES ET LES AIRES DE SÉGRÉGATION. En milieu urbain, le voisinage tend à perdre une grande partie de la signification qu'il avait dans des formations sociales plus simples et plus primitives. Les moyens de transport et de communication plus accessibles, et permettant aux individus de répartir leur attention et de vivre en même temps dans plusieurs mondes différents, tendent à détruire la permanence et l'intimité du voisinage. Par contre, l'isolement des colonies d'immigrants et des colonies raciales dans les ghettos et les aires de ségrégation tend à préserver l'intimité et la solidarité des groupes locaux et des groupes de voisinage. Là où des individus de même race et de même profession vivent ensemble dans des groupes ségrégés, le sentiment d'appartenance au voisinage tend à fusionner avec les antagonismes raciaux et les intérêts de classe.

Les distances spatiales et affectives se renforcent mutuellement, et les effets de la répartition locale de la population se combinent avec les effets de classe et de race dans l'évolution de l'organisation sociale. Toute grande ville a ses colonies raciales : comme Chinatown à San Francisco et New York, Little Sicily à Chicago et d'autres types de colonies moins prononcés. Outre ces colonies, la plupart des villes ont des quartiers du vice bien délimités, tel celui qui existait encore récemment à Chicago ; elles ont leurs lieux de rendez-vous pour toutes sortes de criminels. Toute grande ville a ses banlieues industrielles : les Stockyards, à Chicago ; ses enclaves résidentielles :

Brookline à Boston, le « Gold Coast » à Chicago, Greenwich Village à New York, chacune d'elles ayant la taille et l'aspect d'un village ou d'une petite ville, ou même d'une grande ville, entièrement distincts, sauf que leur population est le résultat d'un processus de sélection. La plus remarquable de ces villes dans les villes, dont la caractéristique la plus intéressante est d'être constituée de personnes de même race ou de races différentes, mais de même classe sociale, c'est sans aucun doute l'est de Londres, avec une population de deux millions d'ouvriers.

> La population d'origine de l'East London a maintenant débordé de l'autre côté du Lea et s'est répandue sur les marais et les prairies proches. De nouvelles villes se sont constituées là où il n'y avait auparavant que des villages ruraux : West Ham, avec une population de près de 300 000 habitants, East Ham, avec 90 000 habitants, Stratford et ses « filles », avec 150 000 habitants, et d'autres "hameaux" qui ont poussé de la même manière. En tenant compte de ces populations nouvelles, nous avons un agrégat de près de deux millions d'habitants. Une population supérieure à celle de Berlin ou de Vienne, Saint-Pétersbourg ou Philadelphie.
>
> C'est une ville riche en églises et en lieux de culte, bien qu'il n'y ait pas de cathédrale, ni anglicane ni romaine ; elle compte des écoles primaires en nombre suffisant, mais elle n'a ni collège, ni lycée, ni établissement d'enseignement supérieur, ni université ; tout le monde lit le journal, mais le seul journal de l'East London qui lui soit propre est un petit journal local. [...] Dans la rue, on ne croise pas de véhicules privés ; il n'y a pas de quartier élégant. [...] On ne voit jamais de femmes se promener dans les artères principales. Les gens, les boutiques, les maisons, les services, tout porte la marque de la classe ouvrière.
>
> La chose qui est peut-être la plus étonnante, c'est que, dans une ville de deux millions d'habitants, il n'y ait pas d'hôtel ! Cela signifie, bien sûr, qu'il n'y a pas de visiteurs[7].

Dans les vieilles villes européennes, le processus de ségrégation est allé plus loin, et les limites des quartiers sont probablement plus marquées qu'en Amérique. L'East London est la ville

7. Walter BESANT, *East London*, p. 7, 9.

d'une seule classe, mais, à l'intérieur même des limites de cette ville, la population subit tour à tour une ségrégation raciale, culturelle, professionnelle. Le sentiment d'appartenance au voisinage, profondément enraciné dans les traditions et les coutumes locales, produit un effet sélectif sur les populations des villes de la vieille Europe et finit par transparaître nettement dans les caractéristiques de leurs habitants.

Ce qu'il nous faut savoir à propos de ces voisinages, de ces communautés raciales et de ces aires urbaines ségrégées, qui existent à l'intérieur ou sur les bordures des grandes villes, c'est ce qu'il nous faut savoir de tous les autres groupes sociaux :

- Quelle en est la composition ?
- Dans quelle mesure sont-ils les résultats d'un processus de sélection ?
- Comment s'introduit-on dans le groupe ainsi constitué ? Comment en sort-on ?
- Quel est le degré de permanence et de stabilité de leur population ?
- Qu'en est-il de l'âge, du sexe, de la condition sociale des gens ?
- Qu'en est-il des enfants ? Combien sont nés et combien sont encore vivants ?
- Quelle est l'histoire du quartier ? Qu'y a-t-il dans le subconscient — dans les expériences oubliées ou dans les souvenirs obscurs — de ce quartier, qui détermine ses sentiments et ses attitudes ?
- De quoi a-t-il clairement conscience ? C'est-à-dire quels sont ses sentiments avoués, ses doctrines, etc. ?
- Que considèrent-ils prosaïquement ? Qu'est-ce qu'une nouvelle ? Vers quoi se porte en général l'attention ? Quels sont les modèles imités ? Sont-ils propres au groupe ou extérieurs à lui ?
- Quels sont les rituels sociaux, c'est-à-dire quelles sont les choses qui doivent se faire dans le quartier si l'on veut échapper aux regards soupçonneux, si l'on ne veut pas passer pour singulier ou bizarre ? Quels sont les leaders ? Quels intérêts incarnent-ils dans le quartier et par quelle technique exercent-ils leur contrôle ?

II. *L'organisation industrielle et l'ordre moral*

La cité des temps anciens était d'abord une forteresse, un refuge par temps de guerre. La ville moderne, au contraire, est d'abord une place commerçante et doit son existence au marché autour duquel elle s'est développée. La concurrence industrielle et la division du travail, qui ont probablement été pour beaucoup dans le développement des potentialités latentes de l'humanité, ne sont possibles que par les marchés, l'argent et tout ce qui facilite les affaires et le commerce.

Un vieux proverbe allemand dit que « l'air de la ville rend libre » [*Stadt Luft macht frei*] : référence sans doute à l'époque où les cités libres germaniques approuvèrent le patronage impérial et les lois rendant le serf fugitif libre s'il parvenait à respirer pendant un an et un jour l'air de la ville. Mais les lois, à elles seules, n'auraient jamais pu libérer l'artisan : l'existence d'un marché ouvert où il pouvait vendre les produits de son travail était une condition nécessaire de sa libération, et c'est l'application de l'économie monétaire aux relations d'homme à homme qui a parachevé l'émancipation du serf.

CATÉGORIES PROFESSIONNELLES ET TYPES PROFESSIONNELS. Le vieux proverbe qui fait de la ville le milieu naturel de l'homme libre ne demeure vrai que dans la mesure où l'individu trouve dans le hasard, dans la diversité des intérêts et des métiers, et dans l'immense coopération inconsciente qu'offre la vie urbaine, l'occasion de choisir sa propre profession et de développer ses talents particuliers. La ville offre un marché aux talents particuliers des individus, et la compétition entre personnes tend à sélectionner pour chaque besogne l'individu qui est le plus à même de l'accomplir.

Dans la réalité, la différence des talents naturels entre les individus est bien moindre que nous ne le croyons, et les aptitudes si différentes qui semblent distinguer les hommes de diverses professions, quand ils sont parvenus à la matu-

الحصة الثالثة :

المادية التاريخية و المدينة

ترتكز النظرية اغلماركسية حول المدينة على فرضيتين أساسيتين:

- الفرضية الأولى : تلعب قوى الإنتاج دورا حاسما في تغيير علاقات الإنتاج

يعبر كارل ماكس Karl Marx في هذه الفرضية أن إدخال إبداعات تقنية في أدوات الإنتاج و تحسينات في أساليب الإنتاج لعبا دورا أساسيا في كسر و تحطيم علاقات الإنتاج الإقطاعية التي كانت سائدة في البلدان الأوروبية و ساهمت في بناء علاقات إنتاج جديدة ، متطورة، تتميز بعمليات واسعة في توسيع أساليب التعاون الاجتماعي الناجمة من تقسيم العمل على المستوى المجتمعي و الإنتاجي.

فان المدينة، و بالأخص المدينة الصناعية، تصبح في هذه المعنى عنصرا جديدا من بين العناصر التي تظهر و تبرز الى الوجود من خلال عملية التقسيم الاجتماعي للعمل.

يعتتر كارل ماركس أن أسلوب الإنتاج الرأسمالي طور إلى حد بعيد جدا أشكال التعاون الاجتماعي على المستوى المجتمعي أولا بحيث تخصصت المدن في أدوار و وظائف اجتماعية و اقتصادية جديدة لا يمكن القيام بها في الأرياف من جهة و على المستوى الإنتاجي من جهة أخرى بحيث أن أساليب التعاون الاجتماعي المعقدة المتواجدة في المدن عوضت أساليب التعاون البسيطة التي كانت تطبع النشاطات الاقتصادية في أساليب الإنتاج القديمة و في الأرياف.

يقول ماركس في كتابه "الرأسمال" في هذا الصدد ما يلي :

"ان التعاون (la coopération) يساهم من جهة في توسيع الفضاء المخصص للعمل و من جهة أخرى في تطوير مستوى الإنتاج في نفس الوقت الذي يساهم فيه في تقليص، تضييق المساحات التي تجرى فيها عمليات الإنتاج. هذا المفعول المزدوج يساهم بصفة قوية في تقليص مصاريف الإنتاج، و هذا بفعل تجميع العمال و العمليات الإنتاجية في مكان واحد. بمعنى أخر، فان تقريب العمليات الإنتاجية عن بعضها البعض يؤدي حتما إلى تطوير المدن"

(كارل ماركس، *"الرأسمال"*، ص 21 من الترجمة الفرنسية لعام 1970)

نفهم من هذا المقطع أن المدن أصبحت تلعب دورا أساسيا في عملية تقسيم العمل الاجتماعي لكونها مجالات ترتكز فيها النشاطات الإنتاجية (الصناعة) من جهة و وسائل الاستهلاك الجماعي من جهة أخرى. أن المدينة الغربية الصناعية هي اذن حسب ماركس نتيجة لتطور التعاون الاجتماعي في اطار النظام الرأسمالي.

الفرضية الثانية: لعبت المدن دورا أساسيا في ظهور و تطوير النظام الرأسمالي لأنها حضرت لهذا النظام الشروط الموضوعية (المادية) لانطلاقه.

يعتبر ماركس (Karl Marx) من خلال استنتاجاته و تحاليله للنظام الرأسمالي أن النموذج الفريد من نوعه "للمدن الحرة" الذي تطور و ترعرع في بعض المناطق من أوروبا الغربية في عهد النهضة شكل القادة الأولى و الأساسية التي بني عليها النظام الرأسمالي الجديد بحيث بلورت هذه الأخيرة السمات الجوهرية لعلاقات الإنتاج الرأسمالية. هذه الأخيرة انطلقت فيما يسميه "الثغرات" التي كانت متواجدة في النظام الإقطاعي السابق للنظام الرأسمالي, يوضح لنا ماركس من جهة أخرى أن علاقات الإنتاج الرأسمالية تطورت بصفة تدريجية في المدن الأوروبية إلى أن وصلت إلى وضعية هيمنة تامة في القرن التاسع عش بعد ما تمكنت الطبقة البورجوازية السيطرة على الحكم بتدميرها أو أصلاحها للنظام الملكي بتأسيس الأنظمة الجمهورية أو المملكات البرلمانية.

الحصة الرابعة :

تؤدي المدينة الصناعية الجديدة وظائف جديدة نذكر منها:

- الوظيفة الصناعية التي تستفيد من عمليات حشد العمال في مجال ضيق، و هو فضاء المدينة كنتيجة لحركات النزوح الريفي القوية التي نجمت من التدهور التدريجي للنظام الاقطاعي القائم على امتصاص الثروات الناجمة من النشاط الزراعي،

- الوظيفة السياسية التي تتجلى في توسيع الابتكارات و الإبداعات النظامية مثل اختراع النظام البرلماني و الديمقراطي،

- الوظيفة الثقافية التي احتوت على بناء ثقافة "بورجوازية" قائمة على روح المبادرة الفردية، على الفردانية وعلى الانتماءات الطبقية.

فان عمليات التحضر السريع و المفرط التي عرفتها البلدان الأوروبية تميزت إذا حسب كارل ماركس:

- بطابع هيكلي أو بنيوي، بحيث أصبحت شكلا من أشكال التقسيم الاجتماعي للعمل،

- بطابع تاريخي بحيث تشكل المدينة الرأسمالية نظاما اجتماعيا فريدا من نوعه مبنيا على التمايز و حشد الطبقة العمالية في فضاءات خاصة بها، في أحياء تفتقد الى أدنى شروط الحياة اللائقة، كما بين ذلك Friedrich Engels في كتابه : "الوضعية الاجتماعية للطبقة العمالية في مدينة لندن".

يجدر الانتباه الى جانب مهم من النظرية الماركسية للمدينة، تلك المتعلق بالتناقضات الجوهرية المتواجدة بين الفاعلين الأساسيين للمدينة الصناعية :يقوم التناقض الأول على التعارض بين مصالح الطبقية العمالية من جهة و أرباب العمل الصناعيين من جهة أخرى بينما يقوم التعارض الثاني في المصالح بين هؤلاء الأرباب وفئة الملاك العقاريين. يؤكد كارل ماركس في الكثير من تحاليله على أن الملكية العقارية تشكل عائقا قويا لعملية توسيع علاقات الإنتاج الرأسمالية لأنها تفرض على المعاملات الاقتصادية منطق غير اقتصادي بما أن الموارد العقارية (المساحات التي يحتاج إليها المستثمرين) نادرة و باهظة الثمن. فان مصلحة الطبقة البورجوازية التي تزتكز على السيولة التامة و المطلقة للمعاملات الالتجرية في السوق تتعارض مع نزعة حجز العقارات و عدم عرضها في السوق من طرف الملاك العقاريين.

التناقض الجوهري الثاني يكمن في التعارض الموجود بين الحاجة الى استهلاك الموارد التي توفرها المدينة المتواجدة في الأوساط العمالية و حاجة أرباب العمل الى تقليص رواتب و أجور العمال أي استغلالهم كما يقول كارل ماركس.

هذا ما أدى هذا الأخير إلى استخلاص أن سر نجاح الرأسمالية يكمن غي قدرة الطبقة البورجوازية على تحالفها مع طبقة الملاك العقاريين غي ايجاد حلول سياسية بينهما.

خلاصة عامة :

نستخلص ما يلي من النظرية الماركسية للمدينة:

1°) بما أن المدينة الصناعية جزء لا يتجزء من المجتمع و بما أنه لا يمكن عزلها عن الكل في مختلف جوانبها الاقتصادية و الاجتماعية، لا يمكن أن نخرج بنظرية جزئية خاصة بالمدينة و الظاهرة الحضرية،

2°) لا يمكن في هذا الصدد تبني النظريات و الحلول الإصلاحية، خاصة منها المشاريع الطوباوية التي تزعم إمكانية إصلاح المدينة بدون إصلاح المجتمع.

مستخرج من كتاب : الرأسمال لكارل ماركس

5) انعكاس تأثير الثورة الزراعية على الصناعة. نشوء السوق الداخلية من أجل رأس المال الصناعي [773]

إن انتزاع ملكية السكان الريفيين على دفعات وبصورة متكررة على الدوام، وطردهم من أرضهم كانا يزودان صناعة المدن، كما رأينا، بجمهرة تلو أخرى من البروليتاريين لا صلة لها، قط، بالطوائف الحرفية، وهذا ظرف عويص حمل العجوز أ. أندرسون (الذي لا ينبغي خلطه مع جيمس أندرسون) في مؤلفه عن تاريخ التجارة، على الإيمان بتدخل مباشر من العناية الإلّهية في ذلك. ويتوجب علينا أن نتوقف لحظة عند هذا العنصر من عناصر التراكم الأوّلي. إن تضاؤل كثافة سكان الريف المستقلين، الذين يزرعون حقولهم الخاصة، لم يفض فقط إلى زيادة كثافة البروليتاريا الصناعية، على غرار ما يفسر جوفروا سانت ـ إيلير زيادة كثافة مادة الكون في هذا الموضع، بتضاؤل كثافتها في موضع آخر[230]. فقد أخذت الأرض، على الرغم من انخفاض عدد زارعيها، تدرّ الآن القدر نفسه من الغلة أو حتى أكثر من ذي قبل، نظراً لأن الثورة في علاقات الملكية العقارية اقترنت بتحسن طرائق الزراعة، وتوسع التعاون، وتركز وسائل الإنتاج، وما إلى ذلك، ولأن العمال الزراعيين المأجورين لم يرغموا على العمل بشدة أكبر فحسب[231]، بل كذلك لأن ميدان الإنتاج الذي كانوا يعملون فيه لأجل أنفسهم، تقلص أكثر فأكثر. ومع تحرر قسم من السكان الزراعيين، تحررت وسائل عيشهم السابقة هي الأخرى. فقد تحولت الآن إلى عناصر مادية لرأس المال المتغير. وصار على الفلاح، الذي جُرِّد من ملكيته، وقُذف به في الهواء، أن يبتاع قيمة هذه الوسائل على هيئة أجور من سيده

- المزارع المؤجرة (terriers) القطاعات، واقطاعات ثانوية (fiefs, arrière-fiefs)، إلخ، حسب قيمة ومساحة الأرض التي لا تبلغ مساحة الكثير منها أحياناً سوى بضعة (arpents) إيكرات. وكان لأصحاب هذه المزارع المؤجرة حقوق سلطة قضائية، بدرجة معينة، حيال رعايا أرضهم. وكانت هناك أربع درجات لهذه السلطة. ومن السهل على المرء أن يفهم القمع الذي يلاقيه السكان الزراعيون في ظل سلطة جميع هؤلاء الطغاة الصغار. ويقول مونتي إنه كان في فرنسا، آنذاك، 160 ألف محكمة، حيث لا يوجد اليوم سوى 4 آلاف (بما في ذلك محاكم الصلح).

(230) راجع مؤلفه، مفاهيم الفلسفة الطبيعية (*Notions de Philosophie Naturelle*, Paris, 1838).

(231) وهذه نقطة يشدد عليها السير جيمس ستيوارت. [بحث في مبادئ الاقتصاد السياسي، ج1، دبلن، 1770، الكتاب الأول، الفصل 16. ن. برلين].

الجديد، الرأسمالي الصناعي. وما يصحّ على وسائل العيش يصحّ على المواد الأوّلية
77] التي تقدمها الزراعة المحلية للصناعة. فقد تحولت إلى عنصر من عناصر رأس المال الثابت.

لنفرض، على سبيل المثال، أن قسماً من فلاحي وستفاليا، الذين كانوا، في عهد فريدريك الثاني، يتعاطون جميعاً غزل الكتان، قد جُرِّد عنوة من ملكيته وطرد من أرضه وعقاره، وأن القسم الآخر الباقي قد حوّل إلى أجراء مياومين عند كبار المزارعين. لنفرض أنه تبرز، في الوقت نفسه، مؤسسات كبرى لغزل ونسج الكتان، يعمل فيها أولئك الرجال «المحرَّرون» من الأرض الآن بصفة عمال. إن مظهر الكتان باقٍ على ما كان عليه بالضبط. ولم يتغير خيط واحد من أليافه، ولكن روحاً اجتماعية جديدة قد حلّت في جسده منذ الآن. فهو يؤلف الآن جزءاً من رأس المال الثابت لأصحاب المانيفاكتورات. وإذا كان الكتان، من قبل، موزعاً على عدد لا حصر له من المنتجين الصغار، الذين يزرعونه ويغزلونه بأنفسهم مع أُسرهم بمقادير صغيرة، فهو يتركز الآن بين يدي رأسمالي واحد، يجعل الآخرين يغزلونه وينسجونه لأجله. لقد كان العمل الإضافي المبذول في غزل الكتان يتحقق، من قبل، في دخل إضافي لعدد وفير من الأسر الفلاحية، وكذلك ـ في عهد فريدريك الثاني ـ في ضرائب لأجل ملك بروسيا (pour le roi de Prusse). أما الآن فيتجسد في ربح لقلة من الرأسماليين. إن المغازل والأنوال، التي كانت مبعثرة في السابق في القرى، تحتشد الآن، على غرار العمال والمواد الأوّلية، في عدد قليل من ثكنات العمل الكبيرة. وتتحول المغازل والأنوال والمواد الأوّلية الآن، من وسائل عيش مستقل للغزّالين والنسّاجين، إلى وسائل للتحكم فيهم[232] واعتصار العمل غير مدفوع الأجر منهم. إن مظهر المانيفاكتورات الكبرى، شأنها شأن المزارع الكبرى، لا يتمّ البتة عن أنها نشأت من دمج عدد كبير من وحدات الإنتاج الصغيرة، وتأسست بانتزاع ملكية عدد كبير من المنتجين الصغار المستقلين. إلّا أن المراقب غير المتحيز لن يُخدع بذلك المظهر أبداً. ففي زمن ميرابو، أسد الثورة هذا، كانت المانيفاكتورات الكبرى لا تزال تسمى (manufactures réunies) أي ورش عمل موحدة، مثلما نتحدث في الوقت الحاضر عن حقول موحدة.

---

(232) يقول الرأسمالي «إنني أمنحك شرف أن تخدمني شريطة أن تعطيني القليل مما بقي عندك وذلك لقاء الجهد الذي أبذله لحكمك». (جان جاك روسو، مبحث في الاقتصاد السياسي، [جنيف، 1760، ص70])

(J. J. Rousseau, *Discours sur l'Économie Politique*, [Gèneve 1760, p.70]).

يقول ميرابو: «لا يتركز الانتباه إلّا على المانيفاكتورات الكبرى التي يعمل فيها مئات الرجال تحت إشراف مدير واحد، والتي تدعى عادة بالمانيفاكتورات الموحّدة (manufactures réunies). أما تلك الورش التي يعمل فيها عدد ضخم جداً من العمال بصورة منفصلة، كل لحسابه الخاص، فإنها قلما تحظى بأي انتباه، بل وتُقصى بعيداً إلى المؤخرة. وهذا خطأ فاحش، فهذه الأخيرة هي وحدها التي تؤلف حقاً قسماً مكوناً هاماً للرفاه الوطني... إن المعامل الموحّدة (fabriques réunies) قد تثري واحداً أو اثنين من أرباب العمل ثراء فاحشاً، أما العمال فلن يكونوا أكثر من مياومين، يتقاضون هذا القدر من الأجور أو ذاك، من دون أن يشتركوا البتة في ثروة رب العمل. أما المعامل المنفصلة (fabriques séparées) فعلى العكس، لا تغني أحداً، ولكنها تؤمن الرفاه لعدد كبير من العمال... إن عدد العمال المقتصدين والمثابرين سوف يزداد، لأنهم يرون في حسن السيرة والمثابرة، وسيلة لتحسين وضعهم بصورة جوهرية، عوضاً عن السعي للحصول على زيادة طفيفة في الأجور لا يمكن أن تكون لها أيما أهمية بالنسبة إلى المستقبل. ونتيجتها الوحيدة، في أحسن الحالات، أنها تتيح للعامل أن يحسن وضعه قليلاً، ولكن فقط من اليوم إلى الغد. إن المانيفاكتورات الفردية المنفصلة، التي تقترن، عادة، بزراعة استثمارة صغيرة، إنما هي المشروعات الحرة الوحيدة»[233].

إن انتزاع ملكية قسم من السكان الزراعيين وطردهم من الريف، لا يقتصران على تحرير العمال ووسائل عيشهم ومواد عملهم من أجل رأس المال الصناعي، بل يفضيان إلى إقامة السوق الداخلية أيضاً.

والواقع أن الأحداث التي تحوّل الفلاحين الصغار إلى عمال مأجورين، وتحوّل وسائل عيشهم ووسائل عملهم إلى عناصر مادية من عناصر رأس المال، تخلق، في الوقت نفسه، سوقاً داخلية لهذا الأخير. لقد كانت الأسرة الفلاحية، فيما مضى، تنتج وسائل

---

(233) Mirabeau، ميرابو، المرجع المذكور، المجلد الثالث، ص 20 ـ 109، ومواضع أخرى. أما أن ميرابو يعتبر ورش العمل المنفصلة أكثر توفيراً وإنتاجية من ورش العمل «الموحدة» ولا يرى في هذه الأخيرة غير نبتات غريبة اصطناعية تقدم لها الحكومة الرعاية، فتفسير ذلك هو الوضع الذي كانت عليه أغلب المانيفاكتورات القارية آنذاك.

العيش والمواد الأوّلية التي كانت تستهلك معظمها هي بنفسها. أما الآن فإن المواد الأوّلية ووسائل العيش هذه غدت سلعاً، ويقوم المزارع الكبير ببيعها، ويجد سوقه في المانيفاكتورات. إن الغزول والأنسجة الكتانية، والمنسوجات الصوفية الخشنة ـ وهي أشياء كانت موادها الأوّلية في متناول كل أسرة فلاحية، حيث كانت تقوم بغزلها ونسجها لاستعمالها هي بالذات ـ قد تحولت إلى مصنوعات تنتجها المانيفاكتورة، وتؤلف المناطق الريفية أسواقاً لها في الحال. إن الزبائن المستهلكين الكثيرين، المبعثرين، الذين كانوا، حتى الآن، يؤمنون حاجاتهم من جمهور من المنتجين الصغار الذين يعمل كل منهم لحسابه الخاص، هؤلاء الزبائن يتركزون الآن ليؤلفوا سوقاً واحدة كبيرة يتولى رأس المال الصناعي[234] تجهيزها بالمصنوعات. وهكذا، إلى جانب انتزاع ملكية الفلاحين المستقلين
[776] فيما مضى، وفصلهم عن وسائل إنتاجهم، يجري تدمير الصناعة الثانوية الريفية، وتجري عملية الانفصام بين المانيفاكتورة والزراعة. وتدمير الصناعة المنزلية الريفية هو وحده الذي يستطيع أن يعطي للسوق الداخلية في بلد من البلدان ذلك الاتساع والثبات اللذين يقتضيهما نمط الإنتاج الرأسمالي.

مع ذلك فإن المرحلة المانيفاكتورية، بالمعنى الدقيق للعبارة، لا تفلح في تحقيق التحول بصورة جذرية. ولا بد من أن نتذكر أن المانيفاكتورة لا تغزو الإنتاج الوطني إلّا جزئياً، فهي ترتكز، دائماً، على قاعدة عريضة من الحرف اليدوية في المدن ومن الصناعة المنزلية الثانوية في الريف. فهي إن دمّرت هذه الأخيرة في أحد أشكالها في فرع معين من الصناعة، وفي نقاط معينة، فإنها تستدعيها إلى الوجود ثانية في أشكال ومواضع أخرى، لأنها تحتاج إليها، في حدود معينة، لمعالجة المواد الأوّلية الضرورية لها. وعليه فإن المانيفاكتورة تخلق طبقة جديدة من صغار أهل الريف الذين يزاولون زراعة الأرض

---

(234) «إذا جرى تحويل عشرين باوناً من الصوف، بدون وسيط، إلى ملبس سنوي لأسرة العامل، بما تبذله هذه بنفسها من جهد، في فترات الفراغ بين الأعمال الأخرى ـ فليس في ذلك غرابة تلفت النظر. ولكن خذ هذا الصوف إلى السوق، وابعثه إلى المصنع، وخذ منتوج هذا إلى السمسار، ومنه إلى البائع، وها أنت إزاء عملية تجارية ضخمة، يشترك فيها رأسمال اسمي يفوق قيمة الصوف عشرين مرة... على هذا النحو يجري استغلال الطبقة العاملة من أجل الحفاظ على السكان الصناعيين البائسين، وإدامة طبقة طفيلية من أصحاب الحوانيت، وإدامة نظام تجاري ونقدي ومالي وهمي»، (ديفيد أوركهارت، المرجع المذكور، ص 120).

مستخرج من كتاب Friedrich Engels أصل العائلة و الملكية

الفصل التاسع

البربرية و المدنية

تتبعنا فيما سبق إنحلال النظام القبلى فى الأمثلة التفصيلية الكبرى الثلاث ، الإغريق والرومان والألمان .

وسنبحث فى النهاية الظروف الإقتصادية العامة التى حطت من شأن النظام القبلى للمجتمع فى المرحلة العليا للبربرية وألغته تماما بقدوم المدنية وفى هذا البحث سيكون كتاب « رأس المال » لماركس مهما بقدر أهمية كتاب مورجان .

فعندما خرجت السلالة من المرحلة الوسطى للوحشية ودخلت مرحلتها العليا ، كانت السلالة فى قمة مجدها وتؤكد ذلك بقدر مالدينا من معلومات عن المرحلة الدنيا للبربرية ، ومن هذه المرحلة سنبدأ بحثنا .

فى هذه المرحلة التى يعتبر الهنود الأمريكيون مثلا لها نجد النظام القبلى فى قمة إزدهاره . فكل قبيلة كانت منقسمة إلى عدد من الفروع يبلغ فى معظم الحالات فرعين ، وبإزدياد عدد السكان انقسمت هذه الفروع الأصلية بدورها إلى عدة فروع وكان الفرع الأصلى يعتبر أخوة بالنسبة لهذه الفروع الجديدة . وانقسمت القبيلة بدورها إلى عدة قبائل نجد فى كل منها فى معظم الحالات الفروع القديمة . وفى بعض الحالات نجد اتحادا للقبائل يضم القبائل المرتبطة برابطة القرابة . وكان هذا التنظيم

البسيط كافيا تماما للظروف الإجتماعية التى نشأ منها ، فلم يكن أكثر من تجمع طبيعى قادر على حل كل المشاكل الداخلية المحتملة الوقوع فى مجتمع منظم بهذا الشكل ، وفيما يتعلق بالمشاكل الخارجية ، فقد كانت تسوى بالحرب التى كانت تنتهى بإفناء إحدى القبائل وليس بإخضاعها . وكان علو النظام القبلى وانخفاضه فى نفس الوقت راجعاً إلى أنه لم يوجد مكانا لحكام ومحكومين . ففى نطاق الشئون الداخلية لم يكن قد وجد بعد أى تمييز بين الحقوق والواجبات ، ومسألة ما إذا كانت المساهمة فى الشئون العامة أو الانتقام للدم ونحوها تعتبر واجبا أو حقا ، هذه المسألة لم تكن تشغل تفكير الهندى وكانت تبدو له مثل الأكل والنوم والصيد لا يهم أن كانت حقا أو واجبا . ولم يكن ممكنا أن تنقسم القبيلة والسلالة إلى طبقات اجتماعية ، وهذا يقودنا إلى البحث عن الأسس الاقتصادية لهذه الظروف .

كان عدد الشعب قليلا جدا ومبعثرا فى إقليم كبير ولم يكن مركزا إلا فى موطن القبيلة تحيط به أرض الصيد الواسعة الخاصة بها وبعدها غابة تعتبر إقليما محايدا يفصل القبيلة عن القبائل الأخرى . وكان تقسيم العمل بطريقة طبيعية مبسطة جدا فقد كان تقسيما للعمل بين الرجل والمرأة فقط ، فكان الرجال يذهبون للحرب والصيد والحصول على المواد الأولية للطعام والأدوات الضرورية لتحقيق هذا الغرض ، وكانت النساء تتولى العناية بالبيت وإعداد الطعام والملابس والطهى والغسل والحياكة . وكان كل من الجنسين سيدا فى مجال نشاطه ، الرجل فى الغابة والمرأة فى البيت . وكان كل منهما يملك ما ينتجه أو يستخدمه من الأدوات فكان الرجال يملكون الأسلحة وأدوات الصيد وتملك النساء أثاث

البيت . وكانت الوحدة المنزلية مشاعية تشمل عدة أسر [1] . وكان كل شيء ينتج يستعمله الجميع ويعتبر ملكا للجميع مثل المنزل والحديقة وقارب الصيد . وهنا فقط نجـــد الملكية المكتسبة ، التي قدمها الفقهاء والإقتصاديون زائفة إلى المجتمع المتمدن باعتبارها آخر تعبير قانوني ترتكز عليه الملكية الرأسمالية الحديثة .

ولكن الإنسان لم يظل في هذه المرحلة في كل بقاع الأرض . ففي آسيا وجد حيوانات يمكن استئناسها وجمعها تحت سيطرته ، وكان يصطاد البقر الوحشي وكان البقر المستأنس ينتج له عجلا مرة كل سنة ويدر له اللبن أيضاً . وقد قامت باستئناس الحيوانات عدد من أكثر القبائل تقدما وهم الآريون والساميون وربما التورانيون أيضا . وبعد ذلك تكونت القطعان من الماشية التي أصبحت العمل الأساسي لهذه القبائل . وقد انشقت قبائل الرحاة من المجموعة العامة للبربرين وكان هذا هو أول تقسيم اجتماعي كبير للعمل . وكانت هذه القبائل الرعاة تنتج مواد طعام وأنواع أكثر من باقي المتبربرين فقد كان عندها اللبن ومنتجاته واللحوم بكميات وفيرة عن الآخرين ، كما كان لديهم الجلود والصوف وشعر الماعز والغزل والنسيج الذي حول المواد الخـــام المتزايدة إلى الاستعمال العام . وقد سبب ذلك للمرة الأولى التبادل المنتظم ، ففي المراحل السابقة كانت عمليات التبادل تتم بصفة غير دورية ، وربما كانت المقدرة الشخصية الاستثنائية في صنع الأسلحة والأدوات سببا

---

(١) خصوصا على الساحل الشمالي الغربي لأمريكا [أنظر بانكوفن] ، فعند الهايداس القاطنين بجزائر الملكة شارلوت تجمعت عدة وحدات منزلية معا في عدد يبلغ السبعمائة تحت سقف منزل واحد ، عند التوتكاس كانت قبائل كاملة تعيش تحت سقف منزل واحد . (المؤلف)

وأصبحت مثل هذه المدن المقر المركزى للقبيلة أو إتحاد القبائل ، وكانت سببا فى تقدم فن البناء كما كانت دليلا على الخطر المتزايد والحاجة للحماية. وإزدادت الثروة سريعا ولكنها كانت ملوكة للأفراد . كما إزداد التخصص فى صناعة المعـــادن والحرف الأخرى وتطور الفن الصناعى . وكان الزراعة تمدهم بالحبوب والخضروات والفواكه كما كانوا يصنعون الزيت والنبيذ . ومثل هذا النشـاط المتعدد لهم يكن ممكنا أن يقوم به فرد واحد . وهنا تم التقسيم الثانى الكبير للعمل فقد إنفصلت الحرف عن الزراعة . ورفعت الزيادة المستمرة فى الإنتاج والنشاط المتزايد فى العمل ، رفعا من قيمة العمل الإنسانى . وأصبح الرق فى هذه المرحلة جزءا هاما من النظـام الإجتماعى بعـد أن كان مبتدئا متفرقا فى المرحلة السـابقة . وأصبح العبيد يدفعون فى جماعات إلى العمـل فى الحقول والمصانع . وقد ترتب على تقسيم العمل إلى فرعين كبيرين ، الزراعـة والحرف اليدوية ، ترتب على ذلك قيـام الإنتاج من أجل التبـادل ، كما ظهر إنتاج السلع ، وجاءت التجارة معهما ولم تقتصر على حدود القبيلة بل إنتقلت عبر البحار . وكل ذلك لم يكن قد اكتمل نموه بعد . وكانت المعادن الثمينة تفضل فى إستعمالها كسلعة نقدية عالمية إذ لم يكن سك النقود من المعادن الثمينة قد عرف بعد وكانت هذه المعادن تقدر عند المبادلة بوزنها فقط . وأضيف التفريق بين الغنى والفقير إلى التفريق بين الحر والعبد ، ومع التقسيم الجديد للعمل جاء التقسيم الجديد للمجتمع إلى طبقات .

وقد كان الإختلاف فى الثروة بين العائلات المختلفة سببا فى تحطيم مجتمعات الوحدات العائلية المشاعية القديمة فى كل مكان كانت هذه المجتمعات لا تزال قائمة فيه ، وهكذا وضع حد للزراعة الجماعية للأرض

لحساب المجتمع كله . وكانت الأرض المزروعة تخصص لاستعمال عدة عائلات ، لمدة محدودة أول الأمر ثم باستمرار بعد ذلك . وتم الانتقال إلى الملكية الخاصة الكاملة بالتدريج وجنبا إلى جنب مع الانتقال من العائلة المكونة من فردين إلى الزواج الحديث . وبدأت العائلة تصبح الوحدة الاقتصادية للمجتمع .

وحتمت الكثافة المستمرة فى السكان وجود إتحاد أقوى بينهم فى الداخل والخارج وأصبح إتحاد القبائل المرتبطة برابطة القرابة ضرورة فى كل مكان وبعد ذلك فورا تم امتزاج هذه القبائل ثم امتزاج الأقاليم القبلية المتفرقة فى اقليم واحد يكون قطرا لشعب معين . وأصبح القائد العسكرى للشعب (Rex — أو bacileus أو thiadans) موظفاً رسمياً دائما وضروريا . وكانت الجمعية الشعبية تنشأ فى كل مكان لم توجد فيه بعد ، وكان القائد العسكرى والجمعية الشعبية والمجلس يكونون الديموقراطية العسكرية التى تطور إليها المجتمع القبلى ، وقد كانت ديموقراطية عسكرية لأن الحرب والاستعداد لها كانا من الأعمال المنتظمة فى حياة الشعب . وكانت ثروات الشعوب المجاورة تجتذب إهتمام الشعوب الأخرى التى بدأت تنظر إلى الحصول على الثروة على أساس أنه أحد الأغراض الأساسية فى الحياة . وكانت هذه الشعوب بربرية وكان السلب يبدو لهم أسهل وأشرف من العمل المنتج أما الحرب التى كانت من قبل تقوم من أجل الإنتقام أو توسيع الاقليم الذى يصبح غير كاف لسكانه ، فقد أصبحت تقوم الآن من أجل السلب وحده وأصبحت حرفة دائمة . ولم تكن إقامة الأسوار المتينة حول المدن المحصنة الجديدة دون سبب وقد كانت خنادقها المحصنة مقبرة النظام القبلى ووصلت أبراجهـــا إلى المدينة .

وعانت الشئون الداخلية تغييرا مماثلا فقد زادت حروب السلب من قوة القائد العسكرى الأعلى والقواد الأدنى مرتبة . وتحول الإنتخاب الذى جرت عليه العـــادة للمتحدرين من أسرة واحدة خاصة بعد الإنتساب للأب ، تحوّل تدريجيا إلى خلافة وراثية فى المناصب ، وكانت هذه الوراثة مسموحا بها أول الأمر ثم مدّعى بها ثم مغتصبة .

وتم تأسيس الملكية الوراثية والأرستقراطية الوراثية . وبهذه الطريقة انتزعت أجهزة النظام القبلى تدريجيا من جذورها فى الشعب والسلالة والأخوّة والقبيلة وتحول التنظيم القبلى كله إلى عكسه ، تحول من تنظيم للقبائل لإدارة شئونها فى حرية إلى تنظيم لسلب وإستعباد الشعوب المجاورة وتحولت طبقا لذلك أجهزة التنظيم القبلى من أدوات تحت مشيئة الشعب إلى أجهزة مستقلة لحكم الشعب والإستبداد به . ولم يكن ذلك بمستطاع الحدوث إذا لم يقسم الإختلاف فى الثروة أعضاء القبيلة إلى غنى وفقير ، وإذا لم تغير الإختلافات فى الثروة فى السلالة ، إذا تغير المجتمع الموحد المصالح إلى الصراع بين أعضاء السلالة الواحدة ، وإذ لم يكن نمو الرق قد بدأ فعلا ووصم العمل من أجل العيش بالحقارة على أنه عمل من أعمال العبيد أشد مهانة من الإشتراك فى السرقة .

... ...

وهذا يؤدى بنا إلى مدخل المدنية . وتبدأ هذه المرحلة بتقدم أكثر فى تقسيم العمل . فى المرحلة الدنيا كان الرجال ينتجون لإشباع حاجاتهم المباشرة فقط وكان التبادل محصورا فى حالات متفرقة عندما يتصادف وجود فائض فى الإنتاج . وفى المرحلة الوسطى للبربرية نجد أن الشعوب التى تعيش على الرعى كان لها فى قطعانها نوعا من الملكية ينتج عنه

بانتظام نظرا لوفرة الماشية فائض من الإنتاج يزيد عن حاجتهم ، كما نجد تقسيما للعمل بين شعوب الرعاه والقبائل المتأخرة التى لا تملك ماشية . وعلى ذلك فقد كانت هناك مرحلتان للإنتاج توجدان جنبا إلى جنب مما خلق الظروف المناسبة للتبادل المنتظم . وقدمت المرحلة العليا للبربرية تقسيما أكثر للعمل بين الزراعة والحرف اليدوية تسبب فيه إنتاج نسبة مستمرة الزيادة من البضائع للمبادلة خاصة بحيث وصلت المبادلة بين الأفراد المنتجين إلى نقطة أصبحت عندها المبادلة ضرورة حيوية للمجتمع .

وقد قوت المدينة وزادت من كل التقسيمات القائمة للعمل ، خصوصا بتقويتها للتعارض بين المدن والريف (فإما أن تكون المدينة السيادة الإقتصادية على الريف كما فى العصور القديمة وأما العكس كما فى العصور الوسطى) كما أضافت المدينة تقسيما ثالثا للعمل غريب على نفسه وذو أهمية حاسمة ، فقد خلقت طبقة لاتشترك فى الإنتاج ولكن تشترك إلى أقصى حد فى تبادل المنتجات هى طبقة التجار . فكل التقسيمات الأصلية السابقة للطبقات كانت مرتبطة تماما بالإنتاج فقد كانت تقسيما لهؤلاء المشتركين فى الإنتاج إلى مديرين وعاملين أو إلى منتجين على نطاق واسع [الأغنياء] ومنتجين على نطاق ضيق (الفقراء) . ولكن نجد هنا أن طبقة ظهرت لأول مرة وهى تستحوذ على الإنتاج ككل وتسيطر إقتصاديا على المنتجين وتخضعهم لحكمها دون أن تشترك بأى نصيب فى الإنتاج ، وقد كانت طبقة تجعل من نفسها وسيطا حتميا بين طبقتين من المنتجين وتستغل كليهما . وباسم حماية المنتجين من متاعب ومخاطر المبادلة ، وباسم إيجاد أسواق بعيدة لمنتجاتهم ، تصبح هذه الطبقة الجديدة (التجار) أهم طبقة نافعة فى المجتمع ، وهى طبقة طفيلية ومنافقة

إجتماعية خالصة ، تأخذ نظير خدمة غير جوهرية الزبد من الإنتاج فى الوطن وفى الخارج وتستحوذ بسرعة على ثروات ضخمة وبالتالى على نفوذ إجتماعى ، ولهذا السبب تطمع فى مزيد مستمر من المناصب وتكسب رقابة متزايدة على الإنتاج خلال فترة المدنية إلى أن تخلق شيئا من إنتاجها الخالص تقدمه إلى المجتمع هو الأزمات الإقتصادية الدورية .

وفى مرحلة الغو التى ندرسها هذه ، لم تكن طبقة التجار الفنية تعرف بعد الأشياء الضخمة التى كانت تحترق من أجلها ، ولكنها ظهرت كطبقة وجعلت نفسها ضرورية وكان هذا يكفيها .

ومع ظهور هذه الطبقة دخلت النقود المعدنية والعملة المسكوكة فى دائرة التعامل ، وبسبب ذلك ظهرت وسائل جديدة يستطيع غير المنتج بها أن يتحكم فى المنتجين وإنتاجهم . فسلعة السلع (أى النقود) التى تختفى فى طياتها كل السلع كانت قد إكتشفت وكانت الإغراء الذى يستطيع أن يحول نفسه بإرادته إلى أى شىء مرغوب فيه . وأيا كان مالك هذه النقود فهو يستطيع أن يحكم عالم الإنتاج ، ومن الذى كان يملكها أكثر من الجميع ؟ التاجر . فى يديه كانت هبة النقود فى مأمن فقد أوضح للجميع أن كل السلع وبالتالى كل منتجى السلع يجب أن تركع أمام النقود . وأثبت التاجر فى الحياة العملية أن كل أشكال الثروة الأخرى عبارة عن صور إذا ما قورنت بهذا الأصل المجسم للثروة . ولم تظهر قوة النقود نفسها بعد ذلك بمثل هذه الحالة البدائية والعنف كما فعلت فى هذه الفترة من شبابها .

وبعد بيع السلع من أجل النقود جاء إقتراض النقود بالربا ولم يلق

أى تشريع ظهر فى فترة لاحقة ، بالمدين تحت أقدام المرابى الدائن دون شفقة أو رحمة كما فعل تشريع أثينا وروما القديم ، فكلا التشريعين جعل الضغط الإقتصادى قانونا تلقائيا .

وبجانب الثروة فى السلع والعبيد ، وبجانب الثروة النقدية ظهرت الثروة فى الشكل العقارى . فحقوق الأفراد فى قطع الأرض التى منحتها لهم فى الأصل السلالة أو القبيلة أصبحت سائدة لدرجة أن هذه الأراضى أصبحت ملكية متوارثة للأفراد . وكان أكثر شيء صارع الأفراد فى سبيله إلى ما قبل هذه الفترة هو تحررهم من إدعاء المجتمع القبلى الحق فى أراضيهم ، وكان هذا الإدعاء قيدا عليهم . وقد تحرر الأفراد من هذا القيد ولكنهم تحرروا بعد ذلك فورا من ملكيتهم العقارية الجديدة نفسها . وقد تضمنت الحرية الكاملة فى الملكية العقارية إمكانية الملكية غير المحدودة وإمكانية نقل هذه الملكية ، فطالما كانت الأرض مملوكة للسلالة لم يكن ممكنا نقل ملكيتها . ولكن عندما حطم الملاك الجدد قيود الحق الأعظم للسلالة والقبيلة مزقوا أيضا الروابط التى ربطته وقتا طويلا بالأرض .

وقد وضح معنى ذلك من النقود التى ظهرت جنبا إلى جنب مع الملكية الخاصة فى الأرض . وأصبحت الأرض سلعة يمكن بيعها ورهنها . وعندما إكتشف الرهن أصبح من الصعب إدخال الملكية الخاصة فى الأرض [أنظر أثينا] ، وكما إرتبط البغاء والعلاقات غير المشروعة بالزواج الحديث ارتبط الرهن بملكية الأرض .

أما الامتداد التجارى ؟ النقود والربا والملكية العقارية والرهن فكانت مصحوبة بالتركيز السريع للثروة فى أيدى طبقة صغيرة ومن ناحية أخرى كان الإفتقار المتزايد للكتل الشعبية وظهرت كتلة كبيرة من

الفقراء . ودفعت أرستقراطية الثروة الجديدة بالجماهير إلى الحضيض دائما [أنظر أثيناوروما وألمانيا] بشكل أقسى كثيراً مما فعلته الأرستقراطية القبلية القديمة وكان تقسيم الرجال الأحرار إلى طبقات طبقا لثروتهم مصحوبا [خاصة لدى الإغريق] بزيادة ضخمة فى عدد العبيد[1] . وكان عمل العبيد الإجبارى هو الأساس الذى يقوم عليه الصرح الكامل للمجتمع .

ولنرى الآن ما إنتهى إليه النظام القبلى نتيجة هذه الثورة الإجتماعية . فقد وقف النظام القبلى عاجزا فى وجه العناصر الجديدة التى نمت دون مساعدته . وكان معتمدا على اضطرار أعضاء السلالة أو القبيلة أن يعيشوا معا فى إقليم واحد ويكونون فاطنية الوحيدين وقد بقى ذلك مدة طويلة . وقد امتزجت الفروع والقبائل فى كل مكان وأصبح العبيد والتابعون والأجانب يعيشون مع المواطنين .

وكان يزعج الدولة التى لم تكن معلوبة إلا حوالى نهاية المرحلة الوسطى للبربرية ، كان يزعجها التنقل وتغير المقر الذى كانت التجارة وتغير حيازة الأرض مشروطين به . ولم يعد فى إستطاعة أعضاء التنظيم القبلى الإجتماع لبحث أمورهم العامة إلا فى حالات قليلة الأهمية مثل الإحتفالات الدينية التى كانت لا تزال تراعى دون إكتراث . فجانب المصالح التى قامت أجهزة التنظيم القبلى للعناية بها ، ظهرت مصالح جديدة فى مجال كسب العيش والتغير الذى ترتب على ذلك فى البناء الإجتماعى وقد كانت هذه المصالح الجديدة غريبة على النظام القبلى ومعارضة له فى

---

(١) سبق ذكر عدد العبيد فى أثينا ، وفى كورنث أيام إزدهارها كان عدد العبيد ٤٦٠ ألفاً وفى إيجينا ٤٧٠ ألفا أى أنه فى كلا المدينتين كان عـدد العبيد عشرة أمثال عدد المواطنين . (المؤلف)

الفقراء . ودفعت أرستقراطية الثروة الجديدة بالجماهير إلى الحضيض دائما [أنظر أثيناوروما وألمانيا] بشكل أقسى كثيراً مما فعلته الأرستقراطية القبلية القديمة وكان تقسيم الرجال الأحرار إلى طبقات طبقا لثروتهم مصحوبا [خاصة لدى الإغريق] بزيادة ضخمة فى عدد العبيد[1] . وكان عمل العبيد الإجبارى هو الأساس الذى يقوم عليه الصرح الكامل للمجتمع .

ولنرى الآن ما إنتهى إليه النظام القبلى نتيجة هذه الثورة الإجتماعية . فقد وقف النظام القبلى عاجزا فى وجه العناصر الجديدة التى نمت دون مساعدته . وكان معتمدا على اضطرار أعضاء السلالة أو القبيلة أن يعيشوا معا فى إقليم واحد ويكونون فاطبة الوحيدين وقد بقى ذلك مدة طويلة . وقد امتزجت الفروع والقبائل فى كل مكان وأصبح العبيد والتابعون والأجانب يعيشون مع المواطنين .

وكان يزعج الدولة التى لم تكن معلوبة إلا حوالى نهاية المرحلة الوسطى البربرية ، كان يزعجها التنقل وتغير المقر الذى كانت التجارة وتغير حيازة الأرض مشروطين به . ولم يعد فى إستطاعة أعضاء التنظيم القبلى الإجتماع لبحث أمورهم العامة إلا فى حالات قليلة الأهمية مثل الإحتفالات الدينية التى كانت لا تزال تراعى دون إكتراث . فجانب المصالح التى قامت أجهزة التنظيم القبلى للعناية بها ، ظهرت مصالح جديدة فى مجال كسب العيش والتغير الذى ترتب على ذلك فى البناء الإجتماعى وقد كانت هذه المصالح الجديدة غريبة على النظام القبلى ومعارضة له فى

---

(١) سبق ذكر عدد العبيد فى أثينا ، وفى كورنث أيام إزدهارها كان عدد العبيد ٤٦٠ ألفاً وفى إيجينا ٤٧٠ ألفا أى أنه فى كلا المدينتين كان عـدد العبيد عشرة أمثال عدد المواطنين . (المؤلف)

كل إتجاه . فمصالح مجموعات الحرفيين التى خلقها تقسيم العمل ، والحاجات الخاصة للمدن ، كانت تتطلب أجرة جديدة ، ولما كانت المجموعات الإجتماعية الجديدة تتكون من أناس من مختلف الفروع والأخوات والقبائل وتشمل حتى الأجانب ، فقد كان على الأجهزة الجديدة أن تتشكل خارج النظام القبلى وكان ذلك يعنى أن تكون ضد هذا النظام . ومرة ثانية نقول أنه فى كل تنظيم قبلى أصبح تعارض المصالح محسوسا ووصل إلى قمته بكون الأغنياء والفقراء والمرابين والمدينين مندمجين فى نفس الفرع والقبيلة . كما كانت هناك كتلة المقيمين الجدد الأجانب عن الإتحادات القبلية والذين إستطاعوا [كما فى روما] أن يصبحوا قوة وكان عددهم من الكثرة بحيث لا يمكن للفروع والقبائل المرتبطة برباط الدم أن تنظمهم بالتدريج . وواجهت الإتحادات القبلية هذه الكتل كمجموعات ذات مزايا فريدة . وتحولت الديموقراطية الأصلية الطبيعية النمو إلى أرستقراطية مكروهة .

وأخيراً فقد نشأ النظام القبلى ونما فى مجتمع لم يعرف الصراع الداخلى ولذلك لم يكن هذا النظام صالحا إلا لمثل هذا المجتمع . ولم تكن لهذا النظام أى قوة إلزامية سوى الرأى العام .

ولكن جاء الآن مجتمع جديد كان عليه أن يفرق بين الأحرار والعبيد وبين الأغنياء والفقراء نظرا لقوة الظروف الاقتصادية التى أوجدته ، وكان مجتمعا عاجزا عن التوفيق بين المصالح المتعارضة بل كان عليه أن يزيد من حدة هذا التعارض . ومثل هذا المجتمع لم يكن ممكنا وجوده إلا فى حالة صراع علنى مستمر بين هذه الطبقات أو تحت حكم قوة ثالثة وهى القوة التى كانت تقف فى الظاهر فوق الطبقات المتصارعة بينما كانت تضغط الصراع العلنى بين الطبقات ولا تسمح بالصراع الطبق

إلا فى الميدان الاقتصادى على أكثر تقدير وبشكل يسمى شروعى . إذن فقد استنفد النظام القبلى أغراضه وتحطم عن طريق تقسيم العمل ونتيجته الحتمية وهى تقسيم المجتمع إلى طبقات ، وحلت الدولة محل النظام القبلى .

. . .